

حِكْمَةُ الْمَوْتِ

أَفْصَحُ صَسَةٍ فِضْرِيَّةٍ
بِقَتْلِ الْأَدِيبِ نَجِيبٍ حَفِظَ

قدر ما خشي التاريخ أعنى تاريخ أسرته . فهو يذكر أن أباه أصيب بالضغط وهو في مثل عمره تقريباً ويذكر أنه لم يقاومه طويلاً فسادت حالته وأصابه الشلل فقضى في عنفوان شبابه وقوته . ولم يكن موت أبيه في عنفوان شبابه حادثاً غريباً في أسرته، فهكذا قضى جده من قبل ولم يجاوز الأربعين ... إن ذا كرتة لا تحفظ له من حياة والده إلا آثاراً خفيفة لأنه توفي وهو — أى محمد — غلام صغير، ولكن صورة المرحوم المعلقة بحجرة الاستقبال أثر باق يشهد بالشبه العظيم بين الابن وأبيه، وإن الناظر إلى الصورة ليقنع بهذه الحقيقة التي تدل على أثر الوراثة . فالجبهة المربعة والعينان العسليتان المستديرتان، والأنف الكبير المائل إلى الفطس، والفم المريض المغلظ بالشارب الغليظ، والوجه المتلي والجسم البدين ... جميع هذه معالم مكررة بين صورة الراحل والشخص الحي كالأصل وصورته، وكأن صاحب الصورة هو محمد نفسه في ثياب بلدية .. الجية والغفطان والعمامة .. ياله من شبه عجيب ! ولم يكن غافلاً عنه ولكن خيل إليه عندئذ أنه يفتن إليه لأول مرة في حياته أو أنه اكتشف فيه مغزى كان عنه خافياً ...

ولا سراة في أن الشبه بينهما لم يقف عند حد الشكل فطالما سمع والده تنوّه بأوجه الاتفاق بينه وبين أبيه في الخلق والطبع في المناسبات المختلفة ... فكان إذا احتد وغضب لأنفه الأسباب تهدت وقالت : « رحم الله أباك ... ليته أورثك غير هذا الطبع طبعاً هادئاً » ... أو إذا جلس إلى الحاكى بنصت في انقباء وهز رأسه في طرب قالت وهي تبسم له : « ابن حلال يا بني . . » أو إذا رجع (٤)

مضى شهر تقريباً وحضرة محمد أفندي عبد القوى يشمر بتوعلك الزاج . آيته همود في الجسم وتقل في الدماغ ووهن — يشتد حيناً ويخف أحياناً — في الساقين ، وقد سكت عن حالته الطارئة طوال الشهر وهو بملها بكثرة العمل تارة وبادمان المهر تارة أخرى، وفعلما طلب إجازة قصيرة وكف عن المهر راجياً أن تعود صحته إلى حالتها الطبيعية ... وانتظر على هذا الرجاء أياماً وما تزداد حالته إلا سوءاً حتى لم ير بداً من استشارة طبيب . وقال له الطبيب — بعد أن فحصه بدقة وعناية — إنه مصاب بضغط الدم وأشار عليه بالترام الراحة أياماً وبالاقتصار على الطعام المسلووق والفواكه ، والامتناع عن تناول اللحوم الحراء وتعاطى الخمر ثم وصف له الدواء اللازم ...

ورجع محمد أفندي من عيادة الطبيب خائفاً مذعوراً كثير الهم والفكر ... وقد يكون هذا — في ظاهره على الأقل — غريباً لأن الضغط لم يكن شديداً، ولأنه من الأمراض التي يمكن تلافي خطرها بالعناية والحرص في اختيار الطعام والشراب، ولأن محمد أفندي شاب في الخامسة والثلاثين فلا يندره الضغط بما يندره ذوى الستين أو السبعين . والأعجب من هذا كله أنه لم يكن غافلاً عن هذه الحقائق وإمكانه في الواقع لم يخش المرض في ذاته

لموت فقد ولي وجهه هذا الأفق القريب لا يحول عنه، وجمل يديم إليه النظر في استسلام وحزن وبأس ...

وعجب في أحزانه لمن يقول إن الموت راحة، ولم يفقه لها من معنى إلا أن تكون تملأ وضيقاً بمتاعب الحياة، ولكن ما هذه المتاعب بجانب ظلمة الموت ووحشة القبر؟

الموت ! ياله من حقيقة خيفة ... لم يشمر بهولها من قبل ... ترى ما هو هذا اللغز الغامض ؟ وما كنهه ؟ وما حقيقة الروح التي ستفارقه بمد زمن يسير وتبعد إلى بارئها ؟ وذكر عند ذاك الآية الكريمة « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أما هو فلم يأت من العلم كثيرا ولا قليلا، وحسبه أن يعلم أن الروح — وهي منبع حياته ووجدانه وأفكاره — ستهجر جسده البائس آخذة معها كل جميل حي غير تاركة خلفها إلا أثرأ جامدا ... أو جثة كما يقولون ... فوا أسفاه !

ودلف إلى المرأة وألقى على وجهه نظرة ملؤها الأسف والحزن . وتأمل صورته طويلا ، وجمل يقبض كفيه ويبسطهما ... كم هو ممتلئ صحة وعافية وشبابا ! سينضب معين هذا كله ... ويجف غصنه الرطيب ... وتفيض معاني اليقظة في عينيه ... ويمسي جثة ... ممزقة ... ثنية ... قدرة ... ترعاها الديدان ... ما أقطع هذا !

والأدهى من ذلك أنه لم يشبع من الدنيا وأحس في تلك اللحظة كأنه لم يبدأ رحلة حياته بمد ، وود من أعماقه لو تتاح له فرصة فيعيد الكرة ، ليعيش حياة الطفولة السعيدة مرة أخرى ويعيد عهد الصبا

إلى البيت بعد منتصف الليل ثملا مترنحا استقبلته قلقة حزينة وتصيح به وهي تغالب دموعها « إن جرح قلبي لم يتدمل بمد ... فلا تفجمني فيك كما فجمت في والدك من قبل ... »

فهو صورة صادقة لوالده في شكله وخلقه وطبعه وما هو ذا يرث عنه مرضه ... فلم لا تكون نهايته كنهايته ... ؟

وأسفاه ! إن هذه الأمرة مقضى عليها بالدمار فقد قضى جده شابا ، وقضى مثله والده، فليس إذا هذا المرض من المصادفات المحزنة ... ولكنه بداية النهاية، وما هو إلا معيد تمثيل الدور القصير الذي قام به من قبل المرحوم والده، وقام به قبله جده، وما مرضه هذا إلا سبب تعتل به الطبيعة عليه لتنفيذ قضاءها المحتوم في شجرة أسرته البائسة المقضى عليها بالدول والجفاف في إبان ربيعها ...

وجمل يردد فيها بينه وبين نفسه : « الشكل واحد والخلق واحد والسيرة واحدة والمرض واحد فالنهاية واحدة دون ريب » وتشبث وجدانه بهذه الأفكار فقويت عقيدة الموت في نفسه وملأت شعوره فتمثلات له حقيقة لا ترحزح ، واستسلم لها استسلاما تاما حتى أشنى على القنوط، وبات ينتظر القضاء المحتوم الذي يراه قريبا ... بل أدنى إليه من مخاوفه ...

إننا جميعا نعلم أننا سائرون إلى الموت ولكننا لا نذكر هذه الحقيقة إلا حين حوادث الوفاة أو لدى زيارة المقابر وفي الساعات النادرة التي نستسلم فيها للتأمل . وفيما عدا ذلك فجلبة الحياة تغمر عادة سكون الموت، وحرارة الأمل تقضى عن أفكارنا برودة الغناء . أما الآن وقد ضرب له شعوره ومنطقه موعدا قريبا

تفاهته أغمض العين على القذى وقال لنفسه معزياً
«إن في العمر متسعاً للتغيير ...» ولكنه لا يستطيع
أن يقول ذلك الآن والموت لا يعمل إلا شهوراً
معدودة ... ولو أن حياته اقتصرت على التفاهة لربما
هان الأمر ... ولكنها تلوث في صميمها
بالاثم والشر والخنوع مما بنى له الجبين خجلاً
ويتنزي له الذل المأ وحزناً ...

ذكر حياته الحكومية فذكر بها الذل والهوان
والضعة والجن ... هو ولا شك موظف مجتهد
ودقيق في عمله ولكنه كان دائماً أضغف من أن
يقاوم الوسط الذي وجد فيه ، فكان يجارى التيار
ويتغادى التصادم ويمنع إشفاقاً من النقل والاضطهاد
فأدى به خوفه من الاضطهاد إلى أحط أنواع
الاضطهاد والذل ، ووجد نفسه يخوض في الأعراض
ويجامل في الحق ويتغاضى عن الذل ويسكت على
الاهانة ... فيالضعة !

وذكر حادثة أهوت به إلى الحضيض وتقبلها
في وقتها قبول الفاجرين ، إذ كانت تختلف إلى بيته
امرأة عجوز تحتال على العيش ببيع البيض والغاكة ،
وكانت أمه تشمها بالمطاف فتطمعها وتكسوها
مما جعل المرأة تطمئن إليها وتمهد لها بحفظ أرباحها
الضئيلة حتى تجمع لديها خمسة جنيهات أو ست
- إذا أصابها قضاء الموت - أن تردها إلى ابنتها
البائسة وأبنائها اليتامى ... وماتت العجوز فمهدت
أمه إليه برد المال إلى مستحقه ... وآسفاه ! ...
لقد كان يعلم أن المتوفاة كانت تخفى أسر تركتها عن
ابنتها ، فما كان منه إلا أن دس الجنيهات في جيبه
وبددها في المقامرة والشراب ... وهضم ضميره
البليد فعملته الشنماء وارتضى السرقة وحرمان اليتامى

وينقلب إلى الشباب عمرًا مديداً ، ولا يترك الدنيا
إلا وقد شبع من مسراتها وتزود من خيراتها ...
كلا إنه لم يشبع من الدنيا ولم يتمتع بحياته كما
ينبغي له . وإنه ليسأل نفسه وسط حزنه وأسفه
وبأسه: (ماذا صنعت بحياتي؟) فيعيبه الجواب كأنه
ولد بالأمس القريب ، ثم يزول عنه الإعياء والمجز
فتأنيه الذكريات تباعاً ، خفافاً وثقالاً ، فلا يكاد
يظفر فيها بما يجوز أن يعمده من السعادة الصافية
التي تطيب بها الدنيا وترجي لها الآخرة . أما ما ينقص
الطمأنينة وينزع آهات الحسرة والأسف فكثير
لا يحصى ، وما يتبقى من الوقت ما يتيح الفرصة
لإصلاح فاسده والتكفير عن سيئه ...

ماذا صنعت بحياتي؟ قد يطرح هذا السؤال قوم
فيأتيهم الجواب السعيد في آيات الفكر التي أورثوها
الإنسانية كافة أو الأعمال الجيدة التي بذلوها
لأوطانهم أو الكفاح النبيل الذي أدوه للأسرة
والأبناء ، أما هو فلم يك واحداً من هؤلاء ... لم
يطلع بتبعة من تبعاتهم ولم يبدل تضحية من
تضحياتهم ولم تسكال هامته بوسام من أوسمة مجدهم
وجهادهم ... فلم يخرج في صدره قط معنى من معاني
الإنسانية ولم يعرف الوطنية إلا شقشقة لسان وجدل
فراغ ، ولم يقدم على الزواج ولا قدر مافيه من مغزى
طبيعى خالد أو واجب اجتماعى نبيل . وبالجملة عاش
لنفسه يرسف في أصفاد الأنانية وينزلق يوماً بعد
يوم في مهاوى الحيوانية والجود ...

وقد يكون من الغلظة أن يقال إنه لم ينتبه من
قبل إلى تفاهة حياته ولكنه لم ينتبه إليها الانتباه
الحرى بأن ييمث فيه روح الندم الصادق وأن يحثه
على التفكير والتجديد ، فكان إذا ضايقه التفكير في

حقهم دون وخز أو ألم ... فأى دناءة وحقارة !
وذكر ليالى العريضة والفجور التى عرفته فيها
الحانات مدمناً لا يريم ، وموائد الفهار لاعباً مدلساً
لا يشق له غبار ، والمستهترات رفيقاً لا يشبع ولا
يرعوى ... أواه ... إنه ينبغي له أولاً أن يستل
الدين والايمان من صدره قبل أن يعد تلك الليالى
الجمراء من الحياة السعيدة التى لا يجوز أن يندم على
ما فعل فيها ...

وذكر أيضاً غرامه ... فقد استطاع قلبه على
تفاهته وتلوته - أن يحس ويخفق ، ولكنه كان
غراماً عجيباً ، بل لو أن إنساناً سماه كراهية ما جاوز
الحقيقة ... كانت فتاته أخت طبيب كان فى صباه
صديقه الحميم ، ثم أناته عنه أسباب الدراسة والعمل
فانتهى هو إلى وظيفته المجهولة وبدأ الشاب حياة
الكفاح والنجاح ، ولم تكن طبيعة محمد بمستطية
أن تهضم هذا الفارق بينه وبين صديق الصبا دون
أن تفرز الحقد والحسد ، وزاد سخيخته إهمال
صديقه القديم له وزهده فى معاشرته ، وأجج من
نيران غضبه عليه ما تراه إلى سممه من زيف صديقه
وعدم اكرانه للأديان وإيمانه بالملم وحده دون غيره .
ولكن ذلك كله لم يستطع أن يححو من صدره ولما
تربى فى قلبه منذ الصغر باحسان شقيقة الطبيب
الناكث الناجح الكافر ... ما كنه هذا الواقع ؟
كانت الفتاة - إذا حرصنا على الجمالة - متوسطة
الجمال وربما دلت بعض قسماتها على دمامة ، ولكنها
كانت ممتلئة الجسم بضته ، مفصلة الثنيات خفيفة
الروح ، فكان يسرى من مشهدها إلى صدره ما يشبه
مس الكهرباء ، وكان يبق فى أعصابه من أثر رؤيتها
قلق وألم فاقتنع فيما بينه وبين نفسه بأن صاحبة هذا

الجسم البض حرة بأن تسكن قلبه وتطفى نيرانه .
وكان المنتظر والحال هذه أن يتقدم إلى صديقه
القديم طالباً يدها ، ولكنه توقع الرفض ورجحه
نظراً للفارق بينهما وبين أسرتهما ، وسلم بظنه
تسليماً دون مناقشة أو مراجعة أو اختبار ، فانقلب
أشد حقداً على صاحبه وعلى الدنيا جميعاً ... وطارده
الفتاة حتى أوقعها فى شباك فكانا يختلسان اللقاء
الحين بعد الحين ، وكانا يذهبان إلى الحدائق يطلبان
غرة من الناس وهناك يلف ذراعه بذراعها ويروى
غلته بلمسها وتقبيلها ، ويعطيها فى مقابل ذلك وعوداً
خلابة . ثم يمود ظافراً بأشباع عاطفته والانتقام
من كبرياء صديقه القديم ...

يا لها من ندالة ! ... إنه بعث بفتاة تصدقه
الحب وتخلص له أيما إخلاص ... فلو أن نيته
صدقت على الزواج منها لربما فاز ببغيته ، ولربما كان
هذا الزواج خير علاج لحياته البائسة . ومن يعلم فلمله
كان الآن أباً يتعزى بما يخلف فى الدنيا من أبناء
يعدون خيط حياته القصير ويميدون حياته الغانية
ومهما يكن من أمر فما عساه صانماً ولم يبق له
من العمر إلا أيام أو شهور ؟ ماذا هو فاعل بشهوره
الباقية ؟ هل يركن إلى الراحة والدعة ؟ أم هل يطبع
على عينيه فيستمر ويتأدى فى غيه ؟ أم هل يستطيع
أن يصلح فى شهور ما أفسده فى خمسة وثلاثين عاماً ؟
ليس الانسان حراً فى الاختيار كما يتراءى له ،
وقد كان محمد - على تفاهة حياته وقذارتها - يؤمن
بالله وباليوم الآخر فبث إيمانه الخوف فى نفسه وجعله
يشفق من عاقبة الموت فاختر سبيل الإصلاح . نعم
قد لا يستطيع أن يصنع شيئاً ذابال ، ولكنه على
كل حال إن يمد طعم الراحة التى يشيب عليها
الاجتهاد ...

لنتنظر منه أبدأ وكانت موقع الدهشة لدى الجميع ،
 ذاد بها عن الكرامة وذم « الاغتياب » ورد بها
 التحرشين وجعلته بطل ثورة غربية حار الجميع
 في تحليلها ، ووجد الجو من حوله يتغير سريعاً
 وأنس من البعض ميلاً إلى إبعاده أو تأديبه ولكن
 شيئاً واحداً لم يتنازع فيه إنسان وهو الاحترام
 الظاهر والماملة اللائقة ، ورضي بذلك مغتبطاً
 ولم يبال ما تخفى الصدور أو ما تخبي الحنايا

ترى أمن الحكمة أن يفضب القوم وهو على
 أبواب الأبدية ؟ ولكن ما حياته وهم لا يرضون
 عن إنسان يعرف حقاً لانسانيته وكرامته ، وهو
 على كل حال لا يعبأ بالناس في سبيل مرضاة الله الذي
 هو على وشك الثول بين يديه ...

وإحسان ! ماذا هو صانع بها ؟ لقد ضيع
 الفرصة السانحة وترك شبابه يتسرب من بين يديه
 وهو غافل عنه بالاطمئنان إلى العمر المديد ... ومهما
 يكن فالأمر واضح لا لبس فيه ، وليس عليه إلا أن
 يذهب إلى صديقه القديم ويطلب يدها فإذا رفض
 — وهو حتماً سيرفض — عاد مطمئن الضمير ملقياً
 عن نفسه ما ينقصها من وخز الألم والتأنيب .. ولن
 يصير إحساناً اختفاؤه من حياتها لأن عدم الزواج
 من ميت ليس خسارة تذكر ...

وذهب إلى صديقه القديم وحادثه في الأمر
 وانتظر الجواب الذي قدره ، ولكن حدثت معجزة
 لم يقدرها مطلقاً ... فرحب به الشاب وقبل طلبه
 وشد على يده بحرارة ...

يا للعجب ! لقد كان أعمى حقاً ، ولكن
 ما العمل الآن ؟ فقد غدا الزواج منها جريمة لا تغتفر
 لأن معناه أن يفادها بعد حين قليل أرملة في

إن الموت قريب وهو يحس بدنوه منه ساعة
 بعد ساعة ، ولكن رسوخ هذه الحقيقة في نفسه
 جمع شتاتها وقوى جناتها وملاء شجاعة واستهتارا
 بالخوف ، مخاوف الدنيا جميعاً ، وم يخاف بعد اليوم ؟
 بل كيف يخاف شيئاً ؟ لقد كان حب الحياة مبعث
 مخاوفه جميعاً ، فلما صار حبا ضائماً لا فائدة فيه انحلت
 عقدة مخاوفه وانطلق من إيساره حرّاً طليقاً لا ينوء
 صدره بشيء من تكاليف الحياة ...

كم كان يخاف الرجال - أو بعض الرجال على
 الأصح - وكأنه يكتشف الآن فقط أنهم أناس مثله ،
 وكم داس على الحق والكرامة في سبيل مرضاتهم !
 وكم ضيع من فرص في الحياة : ... لاخوف بعد
 اليوم ... ولاجمالة في الحق ... ولا فر حيث يجب
 الكر . ولا إحجام حيث ينبغي الأقدام . كلا .
 كلا . لقد انقلبت المخاوف جميعها ألعيب أطفال
 وسيشق طريقه في الحياة غير هياب .

واستحال محمد افندي عبد القوى إنساناً غير
 الانسان الذي عرفه الناس ...

وكان أول ما صنع أن سحب من نقوده المودعة
 في البريد خمسة جنيهات وذهب لتوه إلى المرأة ابنة
 المجوز المتوفاة وأعطاه إياها وهو يقول « هذه أمانة
 أمك ترد إليك » ووقف لحظة ذاهلاً أمام الفرح
 الذي غمر قلب المرأة البائسة وفاض منه إلى أبنائها
 وشمل البيت جميعاً في ثوان سريعة ، وشارك فيه وهو
 لا يدري وخيل إليه أنه محدثه فأحس بسعادة طاهرة
 لم يخفق بمثلها قلبه من قبل ...

وألقي إجازته وعاد إلى وظيفته بمزم جديد ،
 وحدث ما كان متوقفاً فوق الصدام بينه وبين رئيسه
 وبينه وبين زملائه وجرت على لسانه كلمات لم تكن

فأثبت له الموت بالتجربة الواقعة أن الفضيلة لذة سامية، وأن فعل الخير سعادة لا تنجز طالبه، وأن الشجاعة حياة كريمة لا هلاكاً محتوماً ...

ولا نحب أن نقدر محمداً بفوق ما يستحق فالحق أنه كانت تأتي عليه ساعات يخلو فيها إلى نفسه فيهمس حيران متأسفاً : قد تزوجت وانتهيت ... وهجرت حياة الليل اللذيذة ... ولن أكون آمناً بعد اليوم في وظيفتي ... ولكنها كانت أصواتاً خافتة سرعان ما تنيب في جلبة الحياة الجديدة ...

وليث يجب لما صنع الموت منه . ويحسبه من الخوارق والمعجزات . ولما امتلأ صدره بالتعجب والتأمل رأى أن يشرك في أفكاره صديقه الطبيب الذي لا يؤمن بنير العلم والمادة فقص عليه قصته وروى له ما فعلته فكرة الموت بحياته، وأوصى إليه الطبيب بانتباه، فلما انتهى قال له بسخرية: « ويحك أتتوب عن نعيم الدنيا لدنو الموت منك ؟ ... انظر إلى ... ألسنت تراني أوصل الليل بالنهار عملاً واجتهاداً وراء المجد والشهرة والنجاح ؟ أفتعلم ما الذي أصنع لو اطلمت على الغيب وعلمت أن الموت مني قريب ؟ ... لا شيء ... اخلد إلى الراحة والدعة واقضى ما بقي من حياتي بين الكاس والحدود ! » وضحك ضحكا عالياً متواصلاً ثم قال بنفس اللهجة الساخرة :

« ولكن أنعلم متى أتوب حقاً عن الممالك وأهب نفسي للعلم والفضيلة ؟ .. إذا وجدت الخلود ممكناً في هذه الدنيا » وأوصى إليه محمد في صمت وجود ... وازداد عجباً وتأملاً ...

نحيب محفوظ

عنفوان الشباب وربما ترك في بطنها طفلاً يتيماً ... ووجد نفسه في حيرة ظلماء لا يهتدي فيها إلى مخرج، فقد قبل طالبه بالموافقة الثامة وعلمت به احسان، ولا شك أنها تنتظر الآن بفرح عظيم الخطوات الختامية وهو لا يستطيع أن يتقدم ولا يدرى كيف يتقدم ...

ولم يربدا في النهاية من الافضاء إلى فتاته بأزمته النفسية بجميع تفاصيلها وبكل مخاوفه وأوهامه، وأصغت الفتاة إليه بقلب واع، ولكنها لم تجد من نفسها استعداداً لتصديقه أو موافقة على ظنونه وتقديراته، وأبت أن تسلم بما يسلم به قانطاً، وحملت على عرض نفسه على مشاهير الأطباء، ولم تدعه يذهب وحده فذهبت معه ... وأكد الأطباء جيماً وجود الضمط ولكنهم سخروا من أوهامه وأجمدوا على أن لا خطر يهدده قبل الستين ... وابتسمت إحسان مغتبطة وابتسم محمد في حيرة وارتباب، وظل على ارتبابه أياماً ولكنه كان شديد الاستعداد للتأثر والايحاء فأخذت كلمة الثمقات تحوم من نفسه المخاوف. ولكنه لم يعاوده شهور الطمأنينة إلى الحياة والنجاة من الموت إلا بعد أيام أخرى . فلما كرت ذهبت عنه حتى الخوف وعد نفسه مرة أخرى من الاحياء، وتأمل حياته ساعة فلم يتمالك أن يهتف من أعماق قلبه : يا عجبا ... لقد بعثت بعثاً جديداً ...

لأنه مات — إذا جاز لنا أن نقول ذلك — ذليلاً جباناً سارقاً نذلاً أعزب، ورد إلى الحياة كريماً شجاعاً أميناً شهماً متزوجاً — فيا للعجب ! هل يستطيع الموت أن يخلق جميع هذه المعجزات ؟ لقد غابت عنه قديماً لذة الفضيلة فكبر عليه فعل الخير وهالته الشجاعة وخال الاقدام عليها هلاكاً ذريعاً ...